تحليل قصة معاوية مع البطريق تحليلاً سيمائياً

د . عبدالله بن خليفة السويكت

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة معاوية (ﷺ) مع أحد بطارقة الروم

ذكر المسعودي[١] : أن المسلمين غزوا في أيام معاوية (ﷺ) أرض الروم ، فأُسر جماعة منهم ، فوقفوا بين يدي القسطنطينية ، فلطم بطريق [٢] من عظمائهم حُرَّ وجه رجل من الأسارى ، وكان قرشياً فآلمه ذلك ، فصاح : « وا إسلاماه ! وا ذلاه ! »أين أنت مني يامعاوية حين أهملتنا ، وأضعفت ثغورنا ، وحكمت العدو في أبشارنا [٣] ودمائنا ، فوصل الخبر إلى معاوية ، فأحزنه ، وبلغ منه كل مبلغ ، حتى امتنع من طعامه ، ولم يُظهر ذلك لأحد من المخلوقين .

ثم إنه أهَّل الأمر لرجل عاقل محتال ، وجعله يتوسط أمر فداء المسلمين من الروم إلى أن قال له معاوية : اطلب القرشي الفلاني وافْده ؛ ففعل ذلك ، وفكَّه مع جماعة من المسلمين .

فلما وصل القرشي إلى دار الإسلام دعاه معاوية ، واستوصفه عن أمره ، ثم أحسن إليه ، وقال له : لم أنم حتى فككتك ، ولا أنام حتى آخذ لك القصاص ممن لطم حُرَّ وجهك ، وما أنا بغافل عنك ، ولا عن غيرك ، ثم صرفه إلى وطنه .

وجعل معاوية من يومه ذلك يتحيَّل بألطف الحيل في أخذ البطريق ، وتوصيله إليه . فأرسل ذلك الرجل الواسطة في الفداء من ساحل دمشق من مدينة صور ، وقد كان هذا الرجل كثير التكرار في بلاد الروم بالأمتعة ، والفوائد التي تصلح للملوك ، وقد كان ملك الروم يكلفه بمايحتاج إليه ، فأخبر بذلك معاوية ، فأعانه على كل ماطلب منه ، ودفع إليه مالاً كثيراً ، وقال له : ابتع به جميع مايطلب منك الملك وبطارقته ، ثم قال له معاوية : اصنع مركباً لم يُرَ مثله جودة وجرياً ، واشحنه بالأمتعة ، وإن أمكنك مصانعة فلان البطريق فهو المرغوب ، وتحيَّل في ذلك حتى تتمكن منه ، وابذل في ذلك الأموال ، واكتم سري ، ولاتبح به لأحد من خلق الله .

فنهض الرجل ، وصنع ماحدَّ له معاوية ، فلم يشعر به أحد ؛ حتى قدم بلاد الروم بالأمتعة التي كلفوه بها ، فسرَّ بقدومه الملك ومن معه من البطارقة ، وأعطى كل واحد منهم ماكلفه به من حاجته ، وأعرض عن ذلك البطريق دهاءً منه ومكيدة ، فلما كان يوم ، قال له ذلك البطريق : عجبي منك يافلان ، وما الذي أسقط منزلتي عندك من بين أصحابي ، وماذنبي عندك ؟ قال له التاجر : لاذنب لك عندي ، وإنما أنا رجل غريب عندكم ، من كلفني حاجة قضيتها له . قال البطريق : فأنا أرغب منك أن تكون صديقي ، وأن تقضي

---

(١) هو علي بن الحسين بن علي ، من ذرية عبدالله بن مسعود(ﷺ) . ولد في أواخر القرن الثالث الهجري . كان إخبارياً مؤرخاً علامة ، توفي سنة ست وأربعين وثلاث مئة للهجرة .

(٢) البطريق : العظيم من الروم ، وقيل هو أعجمي معرَّب .

(٣) جمع بشرة ، وهي ظاهر جلد الإنسان .

حوائجي وأقضي حوائجك عند الملك، فليس عنده أقرب مني منزلة ، قال له التاجر : وأنا أرغب في ذلك ، كلّفني ماشئت ، فرسم له البطريق حوائج كثيرة .

فلما تم أمر التاجر ، وانصرف من القسطنطينية أقبل إلى معاوية فأعلمه أنه قد صادق البطريق، وأنه قد كلفه حوائج كثيرة ، فأمر معاوية بابتياع جميع ما طلب ، ثم انصرف التاجر إلى الروم ، ووصل جميع مارغبه الملك والبطريق ، وأهدى إليه البطريق هدية سنيَّة من الزجاج المخروط ، والطيب ، والجوهر ، والظرايف ، والثياب ، ولم يزل فعله كذلك في تردده إلى الروم من معاوية . وتطاول الأمر وهو يتاحفهم بغرائب الحوائج ، ويتاجر لهم ، ويهاديهم ، حتى تمكن من البطارقة، ومن ذلك البطريق أكثر ، حتى مضى لذلك سنين . فلما كان في بعضها ، قال البطريق للتاجر – وقد أراد الخروج إلى بلاد الإسلام – قد عنَّت إليك حاجة إن قضيتها إليَّ تمنَّ علي ما أحببت مني فيها ، قال التاجر : وما هي ؟ قال له : تبتاع لي بساطاً حسناً بوسائده ومخادِّه، يكون فيه من أنواع الألوان من الحمرة والزرقة وغيرها ، ويكون من صفته كذا وكذا بما يبلغ من الثمن ، فضمن له ابتياعه على مرغوبه ومراده .

وكان التاجر إذا ورد القسطنطينية حمل مركبه على قرب من موضع البطريق ، وكان للبطريق ضيعة عجيبة على فم الخليج بمنتزهٍ عجيب ، وكان البطريق أكثر دهره في ذلك المنتزه.

ثم انصرف التاجر إلى معاوية سراً ، وأعلمه بالأمر ، فأحضر معاوية بساطاً بالصفة التي رغب منه البطريق بوسائده ومخاده ، وغير ذلك من الأسباب ، ثم انصرف به التاجر مع جميع ماطلب منه من بلاد الشام ، وقد عمل الحيلة . وكان التاجر – فيما ذكرناه – من هذه المدة كأحدهم في المؤانسة والعشرة ، وفي الروم طمع كثير وشره .

فلما دخل التاجر من البحر إلى فم خليج القسطنطينية ، وقد طاب الريح ، وقرب التاجر من ضيعة البطريق استعلم خبر البطريق من أصحاب القوارب والمراكبٍ ، فأخبر أن البطريق في ضيعته، وذلك أن الخليج نحو من ثلاث مئة ميل وخمسين ميلاً بين هذين البحرين، وهما الرومي ومانطش على حسب ماقدمنا وصفه ، والضياع والعمائر على هذا الخليج من جانبيه ، والمراكب والقوارب تختلف بأنواع الأقوات إلى القسطنطينية من هذه العمائر المذكورة لاتحصى هذه المراكب كثرة .

فلما علم التاجر أن البطريق في ضيعته فرش البساط ونضد تلك الوسائد والمخاد في صحن المركب، وكان التاجر قد أعد الرجال في بطن المركب بأيديهم المجاديف مشكلة قائمة غير جادفين بها ، ولايُعلم بهم أنهم في بطن المركب إلا من أظهر منهم عمله ، والريح في القلع [1]، والمركب مارٌّ في الخليج كأنه سهم خرج من كبد قوس لسرعة جريه ، فأشرف على قصر البطريق ، وهو جالس مستشرف مع حرمه ، وقد أخذت الخمر منه ، وعلا الطرب ، وذهب به الفرح والسرور من كل مذهب .

فلما رأى البطريق مركب التاجر طار فرحاً ، وصاح طرباً وسروراً ، وابتهاجاً بقدومه ، فدنا من أسفل القصر ، وحط القلع ، وأشرف البطريق على المركب ، فنظر إلى مافيه وحسن

(١) شراع السفينة .

ذلك البساط ، ونظم تلك الفرش كأنه رياض يزهر ، فلم يستطع القرار في موضعه ، فنزل قبل خروج التاجر من مركبه فطلع إلى المركب ، فلما استقرت قدمه على المركب ، سلم عليه التاجر وأجلسه، وضرب التاجر بعقبه على ظهر المركب والبساط ، وتحت المكان شيء له طنين (وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين في بطن المركب) فما رفع قدمه من الضرب حتى اختطف بالمجاديف ، وإذا هو في وسط الخليج يطلب البحر لايلوي على شيء ، وارتفع الصوت ، ولم يدرِ ما الخبر لعاجلة الأمر، فلم يأت الليل إلا وقد خرج من الخليج ، وقد أوثق البطريق كتافاً ، وطابت له الريح وساعده الجد، وحمله القدر في تلك اللجج ، فتعلق اليوم السابع بساحل الشام، ورأى البر ، فكان في اليوم الثالث عشر بين يدي معاوية .

فغشى معاوية من الفرح والسرور لإفلاحه بالظفر وتمام الحيلة شيء كثير ، ثم قال معاوية : عليَّ بالرجل القرشي ، فأتي به (وقد حضر خواص الناس ، و أخذوا مجالسهم ، وغصَّ المجلس بأهله) ، فقال معاوية للقرشي : قم فخذ قصاصك من هذا البطريق الذي لطم وجهك على بساط ملك الروم ، فإنا لم يضيِّعك ، ولا أبحنا عرضك ، ولابشرتك ، ولاعرضك ، ولادمك .

فقام القرشي إلى البطريق فقال له معاوية : لاتتعد إلى غير ماجرى لك ، واقتص منه على حسب ماصنع بك ، وارع ما أوجب الله – تعالى – عليك من المماثلة ، فلطمه القرشي ثلاث لطمات ، ووكزه خلفه ،وقال : هكذا صنع بي ، ثم انكبَّ القرشي على يدي معاوية يقبلها ، وقال : ماضاع من أنت ناصره ، أنت ملك لاتستطاع : تمنع حِماك ، وتصون رعيتك ؛ وبالغ في مدحه ، والدعاء له .

فأحسن معاوية للبطريق : وخلع عليه ، وبره ، وقال له : ارجع إلى مَلِكِك ،وقل له : تركت ملك العرب يقيم الحدود على بساطك ، ويقتصُّ لرعيته في دار ملكك وسلطانك وعزك ، وقال للتاجر: انصرف بهذا البطريق إلى الموضع الذي أخذته منه ، فاطرحه ومن معه من أتباعه ، ومن طلع المركب معه من أعوانه ، ففعل التاجر ما أمره معاوية .

وأُدخلوا المركب مكرمين ، وطابت لهم الريح ، فكانوا في اليوم الحادي عشر متعلقين بأرض الروم، وقربوا من فم الخليج ، وإذا به قد أحكم بالسلاسل والمنعة من الموكلين به ، فطرح البطريق إليهم ومن معه من أصحابه وأعوانه مكرمين بهداياهم ، وانصرف التاجر سالماً ، ووصل البطريق من وقته إلى الملك ومعه الهدايا والأمتعة والخلعات ، فتباشرت الروم، وسُرّوا بقدومه ، وتلقوه مهنئين له بخلاصه من الشر ، فكافأ ملك الروم معاوية على فعله وبره للبطريق ، والهدايا التي وصلت إليه ، وعهد ألايؤسر أحد من المسلمين طول مدته، وقال ملك الروم : هذا أدهى العرب وأعقل الملوك ، ولهذا قدمته العرب عليها فساس أمورها ، والله لو أحب أخذي لتمَّت له الحيلة عليَّ [1] .

انتهت القصة

(١) نهاية الأرب في معرفة أخبار العرب : ٦ / ١٨٥ ـ ١٨٧ ، أحمد بن عبدالوهاب النويري ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي / القاهرة، (د . ت) .

تحليل القصة

القصة تاريخية ، سياسية ، تصف تدبير داهية من دهاة العرب ، وملك من ملوكها ، لقَّبه عمر بن الخطاب (ﷺ) بـ« كسرى العرب » ، فهي تتحدث عن غزوة من غزوات معاوية (ﷺ) للروم وحصاره القسطنطينية سنة ٤٨ هـ ، وهي السنة التي اقتص فيها معاوية (ﷺ) للقرشي من الرومي بعد تخطيط محكم من قبل معاوية (ﷺ) على يد « تاجر » عُهِد له أمر التنفيذ ، على الرغم من خطورته والمغامرة فيه ، إذ يتجلى في القصة دهاء العقل العربي ؛ الذي يعتمد على التخطيط المحكم ، ثم التنفيذ الدقيق عبرَ وسائل يأتي في مقدَّمتها شخصيات تقوم بما أنيط بها بإتقان ؛ حماية للأعراض ، وحفظاً للكرامة العربية من أن تذل أو تنتهك ، وماذاك إلا من دافع مراعاة الله في حقوق الرعية ، وإنصافاً للمظلوم ممن ظلمه ، وتنفيذاً لحكم الله فيه دون زيادة أو نقص .

كما أن القصة تحمل رسالةً مبطَّنة إلى ملك الروم بأن عليه فكاك جميع الأسارى ، دون المساس بكرامتهم بأي أذى أو إهانة ، وإلا فإن العرب – بدهائهم - قادرون على الوصول إلى أي فرد منهم حتى الملك في ظلمه ، والإطاحة بقياصرتهم ، وحينها لن يغني عنهم جمعهم وماكانوا يعرشون .

على أن القصة في تضاعيف حواراتها ، ومجرياتها السَّردية تصور لنا جواً من الإسقاطات النفسية على عصرنا الحاضر ، وتستدعي شخصيات يتمنى كل مسلم أن يكون من الملوك أمثال معاوية أو من يبلغ مُدَّهُ أو نصيفه ممن يهبُّون لنصرة المستغيث من المظلومين في مشارق الأرض ومغاربها .

وكما هو واضح من سند القصة بأنها حقيقية ، فإن السارد قد أتقن توصيف شخصياتها ، وحبك وقائعها ، وكأنما هي خيالية تم اختيار شخوصها وتراتبية أحداثها من قبل ساردها بعناية .

وعلى الرغم من أن هذه القصة سابقة لقصة انتصار الخليفة المعتصم للمرأة التي صرخت مستغيثة به قائلة : (وامعتصماه) ، فهب لها بجيش جرار هزم به جيوش الروم ، إلا

أن التشابه بينهما جلي واضح، ولكن الشعر لم يتهيأ لمعاوية كما تهيأ للمعتصم ليخلِّد التاريخ تلك الواقعة .

۞ البداية :

تبدأ القصة باسم سارد القصة «المسعودي »، الذي تفصله ثلاثة قرون عن زمن وقوع القصة ، وهي مدة – في واقعها – غير قليلة تتطلب سنداً قوياً ، ورجالاً ثقات يروون تفاصيل أحداثها بكل دقة وأمانة .

وبداية السرد تنبيك عن نهايتها ، وتختصر كثيراً من أحداثها الكبيرة التي قد تقودك إلى تحليل أحداثها الصغيرة، فأول مايفجؤك « أن المسلمين غزوا في أيام معاوية (ﷺ) أرض الروم » كلمات قليلة أنبأت عن خصمي المعركة (المسلمين ، والروم) وزمن وقوع المعركة، وقائد المسلمين فيها ، وإذا عُرِفَ ذلك فإن سابر التاريخ المتمرس سوف تنقاد ذاكرته بداهةً إلى معرفة قائد الروم حينها ، كما أنها تقودك إلى أن مبتدئ الغزوة هم المسلمون ؛ لأنهم الغالبون الأقوياء، فليس من العقل أن يغزو الضعيفُ القويَّ .

۞ الحدث :

تتضمن هذه القصة سلسلة متصلة الحلقات من المواقف ، تسير في اتجاه محدد بصورة إيجابية نحو غاية محددة ، فهي جميعاً ترتبط برغبة «معاوية » في الظفر بالبطريق، والاقتصاص منه على يد « القرشي » ؛ ليظهر له ولمن سيدعوهم في مجلسه ، ومن ستصله القصة أنه لم يضيع رعيته ، ولم يبح أعراضهم ، ولا أبشارهم ، ولا دماءهم سدى بين يدي علوج الروم، وتحقق مارغب ، وتم ماطلب ، فانتهت هذه السلسلة من المواقف التي امتدت سنوات عديدة إلى هذه النهاية ؛ حتى جنى « معاوية » ثمرة تخطيطه ، وبذله الأموال ، وتجشم التاجر دروب الخطر ، فقد تم اختطاف البطريق ، وأخذ القصاص منه في أرض الإسلام ، وظَفَر المسلمون بالأمان بتعهد ملك الروم عدم أسرهم طوال مدته .

والراوي هنا كان يُعنى بسرد الأحداث التاريخية حتى تدافعت في تسلسل منتظم ، مع الاحتفاظ في كل مرحلة من مراحل عرضها بعنصر التشويق الذي يُعدُّ من أهم وسائل إدارة الأحداث ؛ حتى وصلت القصة في النهاية إلى غاية محددة .

۞ الشخصيات :

لا أجد في هذه القصة تكديساً للشخصيات ، ولا أجد السارد أثقل كاهل القصة بحشد منها كما هو حاصل في كثير من القصص، فالقصَّة حافلة بالتكثيف التكليفي للشخصيات الرئيسة ، مما أتاح الفرصة لكل شخصية من شخصياتها أن تنصهر في وهج القصة ،الأمر الذي يهيئ الجو القصصي للقارئ أن يستوعب الدور الفني لكل شخصية ، مما يشكل بُعداً تلاحمياً بينها .

ومن خلال الأحداث جعلنا الراوي نتعرف على ملامح الكثير من الشخصيات بصورة غير مباشرة ، ولكنه عندما جاء إلى شخصية التاجر أفصح بها بقوله : « عاقل محتال » ، وكان بمقدوره ألا يصرح علانية ، ولكنه لفرط انبهاره بمنجزات تلك الشخصية لم يتمالك نفسه إلا أن صرح بصفتيها اللتين لاتخفيان على أي قارئ وإن قلَّ حظه من الفهم .

وهؤلاء الشخصيات بعضها رئيسة : (كمعاوية ، والبطريق) ، وبعضهم ثانويون : مثل بقية الأشخاص .

ومن أبرز تلك الشخصيات مايأتي :

(أ) شخصية معاوية (ﷺ) :

شخصية معاوية (ﷺ) شخصية رئيسة ، نامية ، متطورة مع أحداث القصة ،تتكشف لنا جوانبها وأبعادها شيئاً فشيئاً من خلال المواقف والأحداث – وإن كنا نختزن من دهاء معاوية الشيء الكثير- فلا شك بأنه هو العقلية المدبرة المخططة، وتلك هي سمة القائد الأعلى ، ولن أطيل في استعراض صفات معاوية (ﷺ) ؛ لأن التاريخ وكُتُبَ السِّيَر قد أفاضت الحديث عن دهائها وذكائها ،ولكني سأقصر حديثي على ما أغوص عليه في أعماق هذه القصة، فمن تلك الصفات مايلي :

١ـ أنه شخصية « مرجعية » ، فقد كان التاجر يمدُّ معاوية(ﷺ) بما يستجد ، ويرجع إليه ،ويشاوره في الخطوة التالية ،فلولا وجود هذا العقل المدبر لما تم الظفر بالبطريق .

٢ـ أنه رجل « داهية » حتى لقد شهد التاريخ – بلا مراء– أن معاوية (ﷺ) « أحد دهاة العرب المعدودين » ، يدل على دهائه وذكائه مايلي :

(أ) : أنه عندما وصلته صيحة القرشي « وا إسلاماه ! واذلاه ! » ، بلغ منه كل مبلغ، حتى امتنع عن طعامه ، وعزم على أخذ الثأر ، ولكنه لم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين ، وكأنه يتمثل قول النبي (ﷺ): « استعينوا على قضاء حوائجكم بالسر والكتمان » .

(ب) : حسن اختيار الرجل المنفذ للحيلة ، والذي يجمع بين صفات كثيرة أهمها : العقل والحيلة ، مطبقاً – شعر أو لم يشعر- قول الشاعر :

إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً ولاتوصه

(ت) : علاوة على الصفات التي توفرت في الرجل الذي اختاره معاوية (ﷺ) إلا أنه لفراسته وقوة ملاحظته ضمن أن ذلك الرجل الذي اختاره لن يبيح سره لأحد ، وكان ظنه في محله فكتم .

(ث) : لدهاء معاوية (ﷺ) جعل الحيلة تُدَبَّر في نشاط الرجل السابق وهي التجارة ؛ لسببين :

١ - كي لاينكشف أمره ، فاستمراره في نشاطه السابق يبعد التهمة عنه .

٢ - إتقانه لهذا النشاط مما يضمن للحيلة النجاح .

(ج) : أنه هو العقل المدبر للخطة ، حيث كان التاجر يتلقى التوصيات منه كلما زار الشام والتقى به .

(ح) : لعلم معاوية (ﷺ) أن المال سيفعل الأفاعيل ، فإنه أرخى الزمام للتاجر أن ينفذ مايطلبه الملك وبطارقته وخصوصاً البطريق المراد ، مهما كلف طلبهم من المال ، وقال للتاجر : « وتحيَّل في ذلك حتى تتمكن منه ، وابذل في ذلك الأموال » .

(خ) : طلب من التاجر أن يصنع « مركباً لم يُرَ مثله جودة وجرياً » ، وسوف أحلل مراده بالجودة والجري فيما سيأتي إن شاء الله .

٣- ومن صفات معاوية (ﷺ) : أنه رجل يخاف الله ويتقيه في أمر رعيته ، فلم يهنأ بعيش ولاطعام حتى فكَّ أسر القرشي المضيوم ، واقتص للمظلوم من أحد بطارقة الروم .

٤ ـ عدل معاوية (ﷺ) حينما طلب من القرشي أن يأخذ حقه من البطريق ، وأن يصنع به حسب ماصنع به مماثلة .

٥ ـ كان بمقدور معاوية (ﷺ) أن يأخذ حق الرجل القرشي في أرض الروم دون الحاجة إلى اختطافه إلى بلاد الشام ، والمغامرة بحياة رجال ، ولكنه أراد أن يرسل رسالة مبطَّنة إلى ملك الروم وإلى بقية البطارقة أن المسلمين قادرون على أخذ الثأر من أي رجل منهم إذا اعتدى على أحد من المسلمين ، وهذا ما اعترف به ملك الروم حين قدم البطريق سالماً مُقتصاً منه إلى بلاده ، قال : « هذا أدهى العرب ، وأعقل الملوك ،ولهذا قدمته العرب عليها ، فساس أمورها ، والله لو أحب أخذي لتمت له الحيلة علي » ،وبلغت الرسالة مرادها ، فعهد ملك الروم ألا يؤسر أحد من المسلمين طول مدته .

(ب) شخصية التاجر :

في رأيي أن تلك الشخصية هي الشخصية التي أجيز لنفسي أن أمنحها صفة « المحورية » كيف لا ؟ وهي ومحور التواصل ،والرابط الحقيقي ، والعقلية المنفذة لكل ماتم التخطيط له من قِبَل العقلية المدبرة ،وسأطيل الوقفة عندها ؛ لما لها من أدوار كثيرة ، وخطيرة ، وكبيرة في أحداث القصة ، تحمل هذه الشخصية صفات جبلية فطرية ، وصفات مكتسبة من واقع الحياة وطبيعة العمل ، وسأوردها إجمالاً ، وأترك المجال مفتوحاً للقارئ أن يصنفها لوضوحها ، وأستطيع أن أُجَلِّي ماتتصف به تلك الشخصية بما يأتي :

١ ـ (العقل والحيلة) : فمعاوية (ﷺ) رجل عاقل داهية ؛ ولذا اختار رجلاً ورد وصفه في سرد مباشر : « إنه أهَّل الأمر لرجل عاقل محتال » ، جمعت هذه الشخصية بين صفتين يندر أن تكونا في شخص واحد ، ومعاوية لم يشأ أن يختار رجلاً ذا عقل فحسب ، ولارجلاً ذا حيلة فحسب ،فقد يكون الرجل ذا عقل ولكنه لايجيد الحيلة فينكشف غطاؤه ، ويبوء بالخسارة والبوار ، وقد يكون ذا حيلة ساذج التفكير ، منكشف التدبير ،وبالتالي فلن يكون حصاده بأقل حظاً من سابقه ، وإذن فالجمع تمام نجاح الحيلة ، ونيل المطلوب .

٢ـ (تاجر) : صفة التجارة لهذه الشخصية قد يكون أول المبررات لاختيار معاوية (ﷺ) لها ، فقد أراد لها أن تكون على تلك الصفة ، ولنا في التاريخ عبرة فالذين نشروا الإسلام في معظم بقاع الدنيا هم التجار ؛ لما يتصفون به من تمرس في معاملة الناس على اختلاف أجناسهم وطبائعهم ، فالتاجر لديه من الخبرة مايستطيع أن يخلص نفسه من المآزق التي قد تعترضه في حياته ، ناهيك عن دقته وحرصه على ماله الذي أكسبه ذلك الدقة ، وأخذ الأهبة والاستعداد لكل طارئ ، وكل تلك الأمور سوف تنعكس على إ تنفيذ الحيلة التي أرادها الخليفة بالإيجابية.

٣ـ ليست صفة التجارة بكافية ـ في رأي معاوية حين اختار تلك الشخصية ـ وإنما جمعت صفة أخرى مع التجارة أن لديها أن ذلك التاجر « كان كثير التكرار في بلاد الروم بالأمتعة » ، مما يشير إلى أنه كان كثير الترداد إلى بلاد الروم ، وتلك صفة قد لاتتوفر في أي تاجر ، فمعرفته بالدروب ، ومهارته في سلوك الطرق السريعة ذهاباً وإياباً من الشام إلى الروم مما يضمن نجاح الحيلة ، وسرعة إيصال آخر أخبار القوم إلى الخليفة ، واستسقاء التدابير ، والخطوات التالية لها .

٤ـ أن هذا التاجر كان خبيراً بأمور الخاصة والعامة « فقد كان ملك الروم يكلفه بما يحتاج إليه » ، وكان ينقل « الفوائد التي تصلح للملوك » ، مما هيأ الأمر للتعرف على البطارقة القريبين من الملك ، ثم الوصول إلى البطريق الضحية المراد ، وإذا كان هذا التاجر ذا معرفة بأمور خاصة القوم من الروم فإنه كان قبل ذلك ينقل البضائع والأمتعة إلى عامة الناس ، ويبتاع منهم ، ويشاريهم .

٥ـ أنه شخصية تُجيد فن التلوُّن ، وحبك الدور ، حسب ماتقتضيه الحال ، وتتطلبه الظروف ، وقد تكون سمة اكتسبها من حرفته ، يدل على ذلك أن عالمه الداخلي كان يكيد لهم الحيَل ، ويفتل لهم حبال الكتاف ، وينصب لهم الشراك ، ولكن عالمه الخارجي على مدى سنين متطاولة يظهر لهم المؤانسة والعشرة حتى وصل في ضحيته إلى حد الصداقة ، ومع ذلك لم يشعر بمراده أحد ، ولم يكشف من أمره مخلوق .

٦ـ أنه شخصية «منجزة » ، يدل على ذلك مايلي :

(أ) : حين كلفه معاوية (ﷺ) بأمر فداء المسلمين من الروم ، وبالأخص القرشي الذي أطلق صيحة الاستغاثة ، أنجز ما كلف به ، وفك أسر القرشي ومعه طائفه من الأسارى .

(ب) : قامت الشخصية بدورها خير قيام ، وحبكت الحيلة ، ونصبت الشراك ، حتى وقعت الضحية في الفخ ، واقتص منها ممن ظلمتها ، وعادت الكرامة لمن طالتهم الإهانة ، وشفى الله بها صدور قوم مؤمنين ، وتلك مهمتان كلفت بهما الشخصية من قبل الخليفة ، وأنجزتهما بكل نجاح وإتقان امتثالاً لقول النبي (ﷺ) : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

٧ـ أنه شخصية « نشِطة » ، يدل على ذلك أن معاوية عندما كلفه بأمر تنفيذ الخطة ، وطلب منه أن يصنع مركباً « هبَّ » ، والتعبير بهذا الفعل يقتضي المبادرة والنشاط في التنفيذ .

٨ـ أنها شخصية « تنفيذية » ، تمت على يديها كل أحداث القصة الجسام من المبتدأ إلى المنتهى ، تلقت الخطة محكمة ، فقامت بالدور التنفيذي بإحكام .

٩ـ أنها شخصية « صبورة » ، لم يتم تنفيذ الحيلة في يوم ، أو شهر ، أو سنة ، أو سنتين ، بل صبرت وصابرت وثابرت ، وجعلت تتردد بالأخبار إلى العقل المدبر على مدى سنين طويلة ، ورد في القصة أنه « لم يزل فعله كذلك في تردده إلى الروم من معاوية ، وتطاول الأمر وهو يتاحفهم بغرائب الحوائج ، ويتاجر لهم ، ويهاديهم ، حتى تمكن من البطارقة ، ومن ذلك البطريق أكثر ، حتى مضى لذلك سنين ... » ، وتم لها ماتم من الظفر .

١٠ـ تتصف هذه الشخصية بـ (الثبات) ، فالقصة توحي أن هذه الشخصية قبل أن يَكِلَ معاوية إليها أمر تنفيذ الحيلة كانت تتردد على بلاد الروم لتنقل البضائع ، والأمتعة ، وتمارس مهنة التجارة فحسب ولانوايا أخر ، ولكن الأمر تغير عندما كلَّفها معاوية بتنفيذ اختطاف البطريق فأصبحت تقوم بدور المكيدة والحيلة ، ومن المعروف بداهةً أن المحتال مرتاب إلا ذا الجنان الثابت ، فإنه لم يطرأ على سلوك الشخصية ، ولاواقعها

النفسي أيُّ تغير حين أضمرت المكيدة ، وأظهرت الاستمرار على التجارة ، ومن هنا اكتسبت سمة الثبات .

١١ـ تتمتع شخصية التاجر بـ « الثقة » من قِبَل جميع أطراف القصة ، وهم على النحو الآتي :

(أ) : الخليفة معاوية (ﷺ) : فعندما وصلت استغاثة القرشي إليه حزن ، وبلغ منه الحزن كل مبلغ ، حتى امتنع من طعامه « ولم يُظهر ذلك لأحد من المخلوقين » مما يدل على أنه عازم على تنفيذ أمر مهم خطير ، ففكر فيه ، وعندما اختمرت الفكرة في باله ، لم يُبِح بها لأحد ، وعهد أمر تنفيذه إلى ذلك التاجر ، وقال له : « واكتم سرِّي ، ولاتُبِح به لأحد من خلق الله » وأتم التاجر له مراده ، فكتم الأمر خلال سنوات طويلة يتردد خلالها إلى قصر الخليفة ذاهباً إلى بلاد الروم وآيباً منها دون أن يشعر به أحد .

(ب) : ملك الروم : فقد كان يكلفه بما يحتاج إليه ؛ لأنه كان بصيراً بالفوائد التي تصلح لهم ، ومن خلال معاملته لهم ، لم يبدر منه ماينغص تلك العلاقة أن يشوبها بأية شائبة .

(ت) : البطارقة : كلفه معاوية ، وقال له : « ابتع كل مايطلب منك الملك وبطارقته » ومن هنا اكتسب ثقة البطارقة لثقة الملك به .

(ث) : البطريق (الضحية) وهو المراد ، فقد اكتسب ثقته بالمصانعة حتى كلَّفه بحوائج كثيرة ، الأمر الذي جعل معاوية يؤكد على التاجر أن يبتاع له كل مايطلب ليتطور الأمر إلى الصداقة ، والصداقة تقتضي الثقة العمياء ، والقبول المطلق بكل مايطلبه الصديق ، وهذا ماجعل البطريق يهدي التاجر هدايا سنية « من الزجاج المخروط ، والطيب ، والظرايف ، والثياب » ، واكتساب ثقته ومحبته للتاجر هو ماسهل دخول الخطة حيِّز التنفيذ ، الأمر الذي كللها بالنجاح .

(ج) : عامة الناس : كان تاجراً يرد من بلاد الشام بحوائج ، وأمتعة ، وبضائع ، يضمن رواجها في بلاد الروم ، مما أكسبه ثقتهم .

١٢ـ ومن صفات التاجر : أنه شخصية واثقة من نفسها ، فبما أن الآخرين قد وثقوا به فإن مقابل ذلك قد وثق من نفسه مما يجعله يقدم على هذا الأمر العظيم .

١٣ـ أنه شخصية مغامرة : والمغامرة تقتضي عدم تهيب الموت ، ومغامرتها ناتجة من ثقتها بنفسها ، فاختطاف بطريق من بطارقة الروم العظماء من بلده بل ومن ضيعته التي يختلف فيها أعوانه وأنصاره أمر ليس بالهين .

١٤ـ أنه شخصية «منسجمة» مع كل الأحوال ، ومع كل الأجناس ، ومع كل الطبقات ، مع العرب والروم ، ومع عامة التجار من الناس ، ومع الملوك من الروم ، و الخلفاء من العرب .

١٥ـ أنه شخصية مشهورة معروفة عند العرب والروم ، ولو لم يكُ مشهوراً لما عرفه معاوية(ﷺ) من بين عامة تجار العرب ، وأباح له بسره الخطير ، ولو لم يكُ كذلك لما عرفه ملك الروم وبطارقته .

١٦ـ أنه شخصية «داهية ، ذكية ،تنبئية ، استدراجية» ، ومن دهاء معاوية (ﷺ) اختار داهية مثله ؛ ليقوم بأمر أهمه وجعله يحزن ويمتنع عن النوم والطعام إلا أن يتم ، يدل على حذق التاجر ودهائه ، أنه استدرج البطريق وقاده إلى حتفه دون أن يشعر من خلال مبادرات البطريق من تلقاء نفسه ،والتي نفهمها من سياق القصة الآتي :

(أ) : أنه عندما « قدم بلاد الروم بالأمتعة التي كلفوه بها ، سُرَّ بقدومه الملك ومن معه من البطارقة ، وأعطى كل واحد منهم ماكلفه به من حاجته ، وأعرض عن ذلك البطريق دهاءً منه ومكيدة » ومن هنا تأتي المكيدة ، ويكمن الدهاء ؛ ليأتي ذلك التصرف من أجل أن يبادر البطريق المتروك بعد أيام ، فيستفسر عن علة ذلك ، فيقول للتاجر : « عجبي منك يافلان وما الذي أسقط منزلتي عندك من بين أصحابي ؟ وماذنبي عندك ؟ قال له التاجر : لاذنب لك عندي ،وإنما أنا رجل غريب عندكم ، من كلفني حاجة قضيتها له » .

(ب) : المبادرة الثانية : أن البطريق رغب من تلقاء نفسه أن يكون التاجر صديقاً له ،يتبادلان قضاء الحوائج لبعضهما ، يتضح ذلك من خلال سياق القصة في قول

البطريق للتاجر : « فأنا أرغب أن تكون صديقي ، وأن تقضي حوائجي ، وأقضي حوائجك عند الملك ، فليس عنده أقرب مني منزلة » ، ثم يستغل التاجر تلك الفرصة كي يوثق العلاقة بينهما ؛ تنفيذاً لوصية معاوية (ﷺ) بأن يصانعه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ليقول له التاجر : « وأنا أرغب في ذلك ، كلفني ماشئت ، فرسم له البطريق حوائج كثيرة » .

(ت) : المبادرة الثالثة : في رأيي أن طرف حبل المصيدة من هنا يبدأ ، وهي ناشئة عن مبادرة من البطريق حينما أراد التاجر الخروج إلى بلاد الإسلام (الشام) قال له البطريق : « قد عنَّت إليك حاجة إن قضيتها إلي تمنَّ علي ما أحببت مني فيها ، قال التاجر : وماهي ؟ قال له : تبتاع لي بساطاً حسناً بوسائده ومخادِّه ، يكون فيه من أنواع الألوان من الحمرة والزرقة وغيرها ، ويكون من صفته كذا وكذا بما يبلغ من الثمن ، فضمن له ابتياعه على مرغوبه ومراده » من هذا المنطلق السردي يبدأ التاجر في فتل حبل شراك البطريق ، وهذاماتنبأ به معاوية إذ أرخى له العنان في أن يبتاع لهم مايشاؤون وخصوصاً ذلك البطريق في أي مال يبلغ ، ويلحظ أن البطريق كان هو المبادر في هذا الطلب ، فلو بادر به التاجر قد يظن البطريق فيه شراً ، ولكنه سكت وأغراه إلى أن طلب منه ابتياع مايريد من مخاد ووسائد .

(ث) : المبادرة الرابعة : وهي عنق الزجاجة في تنفيذ ماتم التخطيط له من سنوات عديدة ، وهو ركوبه المركب وذاك تصرف ناشئ من رغبته دون دعوة إليه ، ومن ثم التحضير لاختطافه ، تدور مجريات هذا الحدث في ذكاء عجيب من التاجر ، فحينما أحضر ماأوصاه البطريق من وسائد ومخاد ، تحسس خبر البطريق من أصحاب القوارب والمراكب التي تمر من عند ضيعة البطريق ، فلما علم أنه جالس مستشرف البحر ، مرَّ من عنده ، وكان بمقدوره أن يعطيه ما أوصاه به مباشرة ، ولكنه أراد استدراج الضحية ، ويغريه بالركوب والجلوس في صحن المركب ؛ كي يتم ما أراده له ، فقام « وفرش البساط ، ونضد تلك الوسائد والمخاد في صحن المركب » ، ثم مر بمقربة من الضيعة ، « فلما رآى البطريق مركب التاجر طار فرحاً ، وصاح طرباً

وسروراً ، وابتهاجاً بقدومه ،فدنا من أسفل القصر ، وحط القلع ، وأشرف البطريق على المركب ، فنظر إلى مافيه وحسن ذلك البساط ، ونظم تلك الفرش كأنه رياض يزهر ، فلم يستطع القرار في موضعه ، فنزل قبل خروج التاجر من مركبه ، فطلع إلى المركب ، فلما استقرت قدمه على المركب ، سلم عليه التاجر ، وأجلسه » ، ثم تم اختطافه من قبل الرجال الذين كانوا في بطن المركب .

١٧ ـ أنه شخصية « لماحة ، ذات حدس صادق » ، فقد عرف البطريق الذي لطم وجه القرشي من بين البطارقة من خلال الوصف فقط .

١٨ ـ أنه شخصية تحتسب الأجر من عند الله جزاء ماتقدم من خدمة للإسلام والمسلمين ، فمن خلال أحداث القصة لم يصرِّح السارد أن معاوية (ﷺ) قد وعده بعطية أو جزاء إن هو أتم الخطة وأتى بالبطريق ، ولم يصرح كذلك بأن الخليفة جازاه أو أكرمه عندما نجحت خطته وأحضر البطريق إلى بلاد الشام واقتص القرشي منه .

(ت) : شخصية القرشي :

يلحظ أن هذه الشخصية قد توارت عن أحدث القصة منذ بدايتها ، ولم تظهر إلا في نهايتها ، فقد كانت في معمعة أحداث القصة مختفية ، إما طوعاً أو قسراً ، ولكن ـ ولفطنة معاوية (ﷺ) ، وذكائه ـ لم يُظهر لهذا القرشي أنه سوف ينتصر له ،وإنما كتم ذلك ؛ لئلا تنفلت كلمة منه تجعل العير مع النفير ، وتفسد المؤامرة ، ويبوء التخطيط بالخسران ، ولكنه عندما تم القبض على البطريق ،وأُحضر إلى أرض الإسلام ،ظهر له دور آخر ، فتم استدعاؤه من بلدته التي يبدو أنها غير دمشق عاصمة الخلافة ؛ لأنه في بداية القصة قد «أمره أن يعود إلى وطنه» ؛ ليتم التنفيذ الفعلي على يديه عملاً بقول الله تعالى: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [١] .

يلحظ أن السارد لم يفصح عن اسم هذا القرشي ، وإنما اكتفى بذكر قبيلته ، وأستطيع أن أتبين بعض ملامح هذه الشخصية من خلال مايلي :

---

(١) سورة النور ، آية رقم (١٢٦) .

١ ـ شخصية القرشي شخصية « مجاهدة » ، تتوق إلى تحرير القسطنطينية من أدران الروم ، وتريد أن يدخلوا في دين الله أفواجاً ، فلو لم يخرج للجهاد لما تم أسره .

٢ ـ شخصية « جريئة » تحمل بعض صفات المشاكسة ، فلو لم تكن كذلك ، لما اعتدى عليه البطريق ولطمه ، فمن المتحتم أنه دار بينهما حوار أو خلاف أدى إلى حدوث ذلك .

٣ ـ لم تصدر استغاثته بمعاوية (ﷺ) إلا بعدما بلغت به الإهانة كل مبلغ ، فلطم الوجه ولو لمرة واحدة كفيلة بأن تفقد الإنسان صوابه ، ناهيك عن أنه قرشي من أشراف العرب ، فكيف يأتي هذا العلج ويدوس كرامته على مسمع من الناس ومرأى .

٤ ـ يحمد لهذا القرشي أنه كان سبباً في فك جمع من الأسرى الذين تم افتداؤهم عن طريق التاجر ، فلو لم يطلق صيحته لما علم به أحد .

٥ ـ يحمل هذا القرشي صفات المسلم الذي لايعتدي ، فلما أمره معاوية بأن يأخذ حقه بالمماثلة ، لطم الرومي ثلاث لطمات ووكزه من خلفه ، وقال : هكذا فعل بي ، ولم يزد على ذلك أبداً .

(ث) : شخصية البطريق :

تتجلى في شخصية البطريق عدة صفات ، ورد ذكر بعضها بسرد مباشر ، وبعضها يستشف من خلال الحوار ، وبعض الأحداث ، فمن تلك الصفات مايلي :

١ ـ شخصية « ظالمة » لاتراعي حقوق الأسرى والمرتهنين .

٢ ـ شخصية « ساذجة » ، على الرغم من المنزلة العسكرية التي بلغها ذلك البطريق إلا أنه قد يسهل استدراجها إلى حيث شراك المصيدة ، وساعد البطريق على نفسه نجاح كثير من المكائد التي أشرنا إليها في دهاء معاوية (ﷺ) ، والتاجر .

٣ـ شخصية « شرهة » تحب المال والشهرة ، وكان هذا هو الدافع إلى عقد الصداقة بينه وبين التاجر ، وعندما تم ذلك « رسم له البطريق حوائج كثيرة » ، ولهذا قال السارد في ثنايا القصة : « وفي الروم طمع كثير وشره »

٤ـ شخصية « ثرية ، غنية » لاتبالي في سبيل الشهرة أن تبذل أموالاً مهما بلغت ، فقبل أن يكلف البطريق التاجر أن يبتاع له الوسائد والمخاد ، قال له : « قد عنت إليك حاجة إن قضيتها إلي تمنَّ علي ما أحببت مني » ، وقوله : « ويكون من صفته كذا وكذا بما يبلغ من الثمن » .

٥ـ شخصية تحظى بمنزلة قريبة من ملك الروم – إن صدقت – نفهم ذلك من خلال الحوار المباشر الذي دار بين التاجر والبطريق : « وأن تقضي حوائجي وأقضي حوائجك عند الملك ، فليس عنده أقرب مني منزلة » ، ولا أستبعد أن يكون كاذباً في زعمه ، ولكنه أراد إغراء التاجر بالإخلاص في قضاء حوائجه .

٦ـ شخصية مترفة مخدومة ؛ فقد كان يقضي « أكثر دهره في ذلك المنتزه » ، ومما يدل على الترف أن البطارقة كانوا يقطنون الضياع والعمائر المنتشرة على خليج القسطنطينية ، وكانت « المراكب والقوارب تختلف بأنواع الأقوات إلى القسطنطينية من هذه العمائر المذكورة لاتحصى هذه المراكب كثرة » .

(ج) بقية البطارقة :

لم يكن لبقية البطارقة دور يذكر في القصة ، فقد كانوا شخصيات مساعدة يتوصل من خلالها إلى البطريق الضحية المراد ، فلم يرد ذكرهم إلا في موضع الأخذ من الأمتعة التي يحضرها لهم التاجر من بلاد الشام .

لقد كانوا السبب في إغاظة البطريق عندما أعطاهم التاجر من الأمتعة التي كلفوه بها ، وكان ذلك دافعاً لأن يبادر البطريق إلى السؤال عن سبب ذلك ، وكانت المدخل إلى صداقته .

(ح) : خواص الناس في مجلس معاوية (ﷺ) :

لقد كان معاوية (ﷺ) داهية عندما أحضر خاصة الناس وغصَّ المجلس بهم ، وجعلهم يشهدون تنفيذ القصاص من البطريق على يدي القرشي ؛ كان ذلك ليشهدهم على أنه يمنع

الحمى ، ويصون الرعية ، وينتصر للمظلوم ، وغرض آخر هو أن القرشي قد أهين في بلاط ملك الروم على مرأى ومسمع من خاصته ، فكذلك يهان البطريق في مجلس الخليفة ، وعلى مرأى ومسمع من الحاشية والخاصة ، وبذلك تكون المماثلة « لاتَظلِمون ولاتُظلَمون » ، وليكون ذلك تطهيراً لنفس القرشي مما أصابه من الضَّيم والظلم ؛ ولذلك بالغ في مدحه والدعاء له .

۞البناء :

المألوف في أسلوب البناء أن يتبع الراوي أو السارد تخطيطاً محدداً ، بحيث تبدو الأحداث مترابطة يؤدي بعضها إلى بعض ، وتتجه شيئاً فشيئاً إلى التعقيد الذي يتطلب الحل ، وبذلك تسير في خط ممتد بين الهدف والنتيجة ، وهذا الشكل هو يتمثل في قصة « معاوية » ، فقد جعل الراوي التخطيط على يد البطل «معاوية » ، وجعل « التاجر » بطلاً لايقل أهمية عنه ، فالهدف هو القبض على البطريق وإحضاره إلى بلاد الشام ، والنتيجة كانت إيجابية بجهود نقطة الوصل ، إذ انتهت القصة بأخذ القصاص من البطريق ، وفيما بين الهدف والنتيجة ظل « معاوية » و« التاجر » على اتصال وثيق رغم بُعْد المسافة بينهما ، دونما وسيط ، إذ ساعدهما في ذلك عامل التخفي والسر والكتمان ، وبذل المال ، وتوفير حاجات الملك وبطارقته مهما كلفت من الأموال ، وعلى وجهٍ أخصَّ البطريق الضحية الذي تم بناء الثقة معه في أسرع وقت وأول محاولة .

۞ السرد والوصف :

يسيطر صوت السارد « المسعودي »على القصة ؛ باعتماده على الطريقة المباشرة في السرد نظراً لبُعد المسافة الزمنية بينه وبين مايتحدث عنه ، والذي يبدو لي أنه لم يكن ذا خبرة في سبك القصة ، أوحبكها بطريقة فنية ، فلم يكُ ذا لغة تأليفية عالية .

ولكن – وحتى لانغبط الراوي حقه – فإنه لم يكتفِ بمجرد سرد الأحداث ، بل حاول في الوقت نفسه تصويرها من خلال أفعال متتالية لها دلالات انفعالية ، كما في وصف معاوية عندما وصلته استغاثة القرشي : « وبلغ منه كل مبلغ ، حتى امتنع من طعامه » ، وعندما نجح في فك أسره ، قال معاوية للقرشي : « لم أنم حتى فككتك ، ولا أنام

حتى آخذ حقك لك القصاص ممن لطم حر وجهك » ، فاعتماد السارد على الفعلين الماضي «أنم » والفعل المقابل له « ولا أنام » المستقبل يدل من طرف خفي أنه يريد تنفيذ خطة محكمة يتم من خلالها أخذ القصاص من البطريق الظالم .

وفي موقف سردي مفارق لما سبقه يبدع السارد في وصفه ، فعندما ظفر «معاوية» بمطلوبه ورأى البطريق مكبَّلاً بين يديه وصفه الراوي بقوله : « فغشي معاوية من الفرح والسرور لإفلاحه بالظفر وتمام الحيلة » .

وهكذا نلحظ أن الراوي لايكتفي بذكر الفعل مجرداً عارياً من أي صبغة تكسبه الانفعالية ، بل يضيف إليه الوصف الذي يحدده ويزيده وضوحاً ، فالفعل « غشي » يلحق به مايفسره « من الفرح والسرور لإفلاحه بالظفر وتمام الحيلة » .

وتأتي أفعال يؤكد بعضها بعضاً ، كما في قول معاوية للتاجر : « واكتم سري ، ولاتبح به لأحد من المخلوقين » ، فكتمان السر يستلزم منه عدم البوح به لأحد من المخلوقين ، ولكن خطورة الأمر تستلزم من السارد على لسان معاوية أن يقول مايقول .

والمفعول المطلق يكسب اللفظ عذوبة وانطلاقاً ، والجمل ترابطاً وعناقاً ، ففي موقف الفرح والسرور يرى البطريق مادفع في سبيل الحصول عليه كل ثمن ، فها هي الوسائد والمخاد منضدة أمام ناظريه على فرش كأنها الرياض المزهرة في صحن المركب ، فيشرف عليها ، وقبلها يأتي وصفه من قبل السارد فيقول : « طار فرحاً ، وصاح طرباً وسروراً ، وابتهاجاً بقدومه » ليكون ذلك زيادة في سروره على مافيه من طرب وخمر .

۞المساعد الذي ساعد الذات على تحقيق الموضوع (وسيلة الحيلة):

لقد كان بناء القصة متماسكاً بنَّاءً قادنا إلى كثير من التصورات حول الوسائل التي ساعدت الخليفة معاوية (ﷺ) على تنفيذ خطته ، ولقد كان محظوظاً حين وفق في انتقاء وسائل التنفيذ ، فنجد بعضها تم في زمن واحد ، وبعضها استغرق وقتاً طويلاً يصل إلى سنوات ، ولكنه والتاجر كانا على ثقة بأنه سيتم لهما مايصبوان إليه ؛ لأنهما ينشدان الحق ، والله قد تكفل بنصرة الحق وإزهاق الباطل ، وإذا أردنا أن نستعرض بعض الوسائل التي ساعدت على إحكام الخطة ، ونجاح تنفيذها ، فإنها تتمثل في الآتي :

١ ـ مفتاح التخطيط هو التفكير في الشخصية التي تصلح لتنفيذ هذا العمل الخطير، ووقع الاختيار على ذلك «الرجل التاجر العاقل المحتال» ، الذي كان من شأنه ماكان .

٢ ـ « المال » : جمع معاوية (ﷺ) بين وسيلتين بينهما ارتباط وثيق هما : المال والتاجر ، فالتاجر يحسن التصرف في المال ؛ ولذا جعله إحدى المطوَّعات بين يديه ، فقال له : «وابذل في ذلك المال » ، وكان قد دفع إليه مالاً كثيراً ، حتى أصبح المال محور التواصل بين التاجر وملك الروم وبطارقته ، فكان ذلك سبباً في الحصول على المبتغى ، وسبباً في وقوع الضحية في الفخ ؛ شراهة منه وجشعاً .

٣ ـ تنبأ معاوية (ﷺ) بما سوف في مستقبل التاجر ؛ ولذا أمره بقوله : « اصنع مركباً لم يُرَ مثله جودةً وجرياً ، واشحنه بالأمتعة » ، لقد أمره أن يصنع مركباً يجمع بين صفتي الجودة والجري ، أما اشتراط الجودة فلكي يكون قادراً على حمل البضائع والأمتعة التي يتردد بها التاجر على بلاد الروم ، ولكي يتحمل كثرة الأسفار ، والرياح العاتية التي قد تعترضه في لجج البحر ، وأما اشتراط الجري ، فلكي يكون ناجياً بهم حين يتم اختطاف البطريق ؛ ليصل به إلى بلاد الشام في أسرع وقت ، وكل ذلك من الوسائل المساعدة على نجاح الحلية .

٤ ـ لقد كان مبدأ الصبر وتطاول الزمن واضحاً في سياق القصة ، فقد لبث التاجر يتاحف البطارقة بغرائب الحوائج ، ويتاجر لهم ، ويهاديهم ؛ حتى تمكن منهم ، وحين تمكن منهم صار محل ثقة عندهم ؛ لذا أضحت الهدايا والمتاحفات والمتاجرة لهم إحدى الوسائل المرسومة التي ساعدت الذات على تحقيق الموضوع .

٥ ـ عندما تم اختطاف البطريق هيَّأ الله ريحاً طابت لهم ، فأسرعت بالمركب ، وحملهم القدر في تلك لجج البحر ، فلم يبزغ فجر اليوم السابع إلا وهم بساحل الشام .

٦ ـ حتى أصحاب المراكب والقوارب الذين كانوا يمرون بجانب ضيعة البطريق كانوا وسائل لتنفيذ الخطة من حيث لايشعرون ، فقد استعلم التاجر خبر البطريق منهم ، وتأكد من وجوده في ضيعته وقتئذٍ ، فتم المراد .

٧ـ لما همَّ التاجر ومن معه بحسم الأمر واختطاف البطريق ، أحضر له ماطلب من وسائد ومخاد ، ومنطق العقل يقتضي أن يسلمها له هاء بهاء ، ولكنه فكر وقدر في حيلة تجعل البطريق يدنو من المركب لكي يتم اختطافه ، فقام بوسيلة جذب ، فقام « وفرش البساط ، ونضد تلك الوسائد والمخاد في صحن المركب » ، ثم مرَّ بمقربة من الضيعة ، « فلما رآى البطريق مركب التاجر طار فرحاً ، وصاح طرباً وسروراً ، وابتهاجاً بقدومه ، فدنا من أسفل القصر ، وحط القلع ، وأشرف البطريق على المركب ، فنظر إلى مافيه وحسن ذلك البساط ، ونظم تلك الفرش كأنه رياض يزهر ، فلم يستطع القرار في موضعه ، فنزل قبل خروج التاجر من مركبه ، فطلع إلى المركب ، فلما استقرت قدمه على المركب ، سلم عليه التاجر ، وأجلسه » ، ثم تم اختطافه من قبل الرجال الذين كانوا في بطن المركب .

٨ـ كيف سيعلم الرجال الذين في بطن المركب أن البطريق قد ركب فيهبوا لاختطافه وإخفائه عن أعين الناس ؟ لقد ساعدهم على ذلك عامل الصوت ، فعندما استقرت قدم البطريق على المركب ، وسلم عليه التاجر وأجلسه عنده ، بدأت عامل الصوت يدخل حيز التنفيذ ، وكان قد وضع تحت المكان الذي هما جالسَين فيه شيئاً له طنين ، وهو علامة بينه وبين الرجال الذين في بطن المركب ، وحينها « ضرب التاجر بعقِبه على ظهر المركب ، فما رفع قدمه من الضرب حتى اختُطِف بالمجاديف ، وإذا هو في وسط الخليج لايلوي على شيء ، وارتفع الصوت ، ولم يدر ماالخبر لعاجلة الأمر ، فلم يأت الليل إلا وقد خرج من الخليج ، وقد أوثق البطريق كتافاً » .

۞الثنائيات :

تنتظم البناء السردي لهذه القصة مجموعة من الثنائيات الضدية، مما يشي بتعددية الانفعالات، والأحداث ، والأماكن ، والأزمان ، بل وتباينها ،نستطيع أن نمسك بزمام كل ثنائية من خلال السرد الخالص حيناً ، ومن تدخُّل الراوي بالتعليق أحياناً أخر ، ومن تلك الثنائيات مايأتي :

١ـ في القصة ورد ذكر أرض الروم وهي بطبيعة الحال بلد كفار ، تقابلها أرض الإسلام «أرض الشام» ، عاصمة خلافة المسلمين ، ويتبع هذه الثنائية ثنائية أخرى ألا وهي خليفة المسلمين معاوية ، ويقابله ملك الروم .

٢ـ يستحوذ عامل التكتم والسرِّية على كثير من أحداث القصة من جهة المسلمين ممثلاً بشخصية معاوية والتاجر ، فجميع أحداث القصة تجري في تخفٍ وتكتم : « ولم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين ... ، واكتم سري ، ولاتبح به لأحد من المخلوقين ... ، فلم يشعر به أحد ... ، ثم انصرف التاجر إلى معاوية سراً ....، ... » وغيرها من الأحداث ، وكلها تبرز أحداثاً يحاك من ورائها تخطيط يتم تنفيذه في المستقبل ،كان له دور في تدافع الأحداث نحو الإعلان ، وإفشاء سر بعض التصرفات التي يقوم بإحداثها التاجر ، بخطفه وانكشاف أمره أمام البطريق حين إيثاقه كتافاً ،وتلك ضدية لم يتم الكشف عنها إلا بعد استكمال جميع معطيات النص التي يراد لها أن تكون .

٣ـ قامت هذه القصة على ثنائية كانت محرِّكة للأحداث من بدايتها حتى نهايتها، تلك هي ثنائية : الأسر ويقابلها الفكاك ،وقد طافت على ثلاثٍ من شخصيات القصة ، الأولى: مجموعة من المسلمين تم أسروا في تلك المعركة ، ثم قام معاوية بافتدائهم بإرسال التاجر، والشخصية الثانية : ذلك القرشي الذي أطلق الصيحة عندما كان مأسوراً ثم تم فكاكه مع مجموعة من المسلمين الذين سبق ذكرهم ، الشخصية الثالثة : البطريق الذي أسره التاجر ومَن معه ، ثم آل أمره إلى فك أسره بعد الاقتصاص منه .

٤ـ عندما وصل معاويةَ (ﷺ) خبر أسر القرشي وماتعرض له من إهانة أدت به إلى الاستغاثة ،حزن وبلغ منه الحزن كل مبلغ ، ولشده حزنه امتنع من طعامه ، ولكنه لم

يلبث أن خطط وقدَّر ونجح كيف قدَّر وأحضر له البطريق في مجلسه فلما رآه مستقراً عنده انقلب الترح إلى فرح فما كان منه إلا أن غشي من الفرح والسرور « لإفلاحه بالظفر وتمام الحيلة » .

٥ـ تناقض التاجر بين عالمه الخارجي وعالمه الداخلي ، إذ استطاع – بمكر – أ ن يوهم البطريق بإخلاص الصداقة حينما لبى له كل ماطلبه منه ، ولكنه كان في عالمه الداخلي يضمر له البغض والمكر والخديعة ؛ انتصاراً للحق وإزهاقاً للباطل ،وقد نجح في ذلك وتمت الحيلة .

٦ـ عاش البطريق في أحداث هذه القصة حالتين متناقضتين حالة من العزِّ والكبرياء وكمال الحرية عندما كان قائداً في جيشه ، ومنعماً في ضيعته ، يأمر وينهى ، مجاب الطلب ، ولكن : ماطار طير وارتفع إلاكما طار وقع

ولكنه حينما تم اختطافه تحول من عزيز إلى ذليل ، من طليق إلى أسير ،من مكرم إلى مهان ، من مكبِّل إلى مُكبَّل ،ومن قادر إلى مقدور عليه ، وعندها تعرَّض للإهانة فلُطِم وجهُه كما لَطمَ حُرَّ وجه القرشي ، فذلك جزاء ماكسبت يداه .

٧ـ يتجلى لنا في هذه القصة (الظلم ، والعدل) ، فالجور والظلم عند بطارقة الروم ، وعلى رأسهم البطريق الذي اعتدى على القرشي بلطم حر وجهه ، والعدل عند المسلمين الذين لم يزيدوا على أخذ القصاص منه ، بل تم مماثلة ،ومن زيادة عدلهم أنهم أحسنوا إليه ، وأعادوه إلى أهله محملاً بالهدايا والتحف .

٨ـ لقد أصيب ملك الروم وبطارقته بحالتين نفسيتين متغايرتين ،حالة من الحزن على فقد رفيقهم والخوف عليه القتل ؛ لأنه اختطف من قبل أعداء بالنسبة لهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن تباشروا حين اطمأنوا عليه ،وتلقوه مهنئين له بخلاصه من الشر .

٩ـ تُظهِر لنا القصةُ دهاء العربي وسذاجة الرومي ، أما دهاء العربي فواضح وضوح الشمس في رابعة النهار من خلال أحداث القصة ، ولكن سذاجة الرومي تكمن في أنسه وثقته بالغريب لهثاً وراء المال مما أعماه عن خلفيات الحرب القائمة بين المسلمين والروم زمن حدوث القصة ، ويلحق في هذه الثنائية ثنائية أخرى هي غربة التاجر ،تظهر لنا هذه

الغربة من خلال الحوار الذي دار بين التاجر والبطريق عندما قضى للملك ولبقية البطارقة حاجتهم وأعرض عن البطريق ، وعندما سأله عن سبب إعراضه عنه قال التاجر : « إنما أنا رجل غريب عندكم ، من كلفني حاجة قضيتها له ..» ، وكان هذا الحوار هو بداية الصداقة التي أوصلته إلى أنس الروميين وثقتهم به ؛ مما رغَّب البطريق في صداقته أملاً في قضاء حوائجه .

١٠ـ الصرخة التي أطلقها القرشي حين لُطم وجهه تنبئ عن تناقض داخلي وصراع بين نفسيته العزيزة وواقعه الحالي الذليل ، فحينما لطم الرومي ذلك القرشي الذي يعتبر نفسه من أشرف قبائل العرب ، وقبل ذلك دينه الذي أعزه الله به ، قارن بين حاليته ، فانطلقت صرخة عميقة : « واإسلاماه ، واذلاه» ، أزهقت ماتبقى لديه من صبر ، حينها هبَّ له معاوية طالباً فكاك أسره .

۞الإشارات المكانية :

معرفة المكان ضروري لفهم الواقع ، ورصد تحركات الأشخاص ؛ لأن المكان لايمكن أن ينفصل عن أشيائه ، فهي التي تلمؤه ، وتمنحه الثراء الذي يتميز به دون غيره من الأماكن ، فقد يكون المكان مؤثراً على نفسيه الأشخاص سلباً أو إيجاباً ، خوفاً أو أمناً .

وفي هذه القصة إشارات مكانية كثيرة استطاع السارد توظيفها بصورة تدفع الحدث إلى حدث آخر ، وتكسبه تعقيداً سيراً نحو الحل والتنوير ، وقد أعطى السارد بعض الأماكن في هذه القصة أبعاداً توصيفية تتراوح بين السعة والضيق ، والانفتاح والانغلاق ، تكون مهيبة حيناً وتكون مبتذلة حيناً آخر ، مما كان لها دور بارز في تشكيل الكثير من الأحداث على هيئة معينة ، وموحية بأحداث بعدها وممهدة لها .

إن الكثير من الأماكن التي وردت في القصة أكسبتها بُعداً تاريخياً ، وفتحت مجالاً خِصباً للقارئ في استكناه نفسية الشخصيات ، وفهم منزلتهم بين الناس .

تتقاسم هذه القصة الكثير من الأماكن ، منها المتناقض فدار الإسلام « دمشق » عاصمة الخلافة الأموية ، تقابلها « القسطنطينية » عاصمة بلاد الروم ، وعلى الرغم من بُعد المسافة بين المكانين إلا أنه كان لهما دور بارز في تجاذب الأحداث والشخصيات معاً ، وحين

نقارن مابين المكانين نجد أن أغلب أحداث القصة قد جرت على أرض الروم ، فكانت أرض الروم مسرحاً لكثير من الأحداث الرئيسة في القصة ، فشرارة القصة وبدايتها وهي لطم القرشي جرى على أرض الروم ، وتبعتها المبايعة والشراء ، وقضاء الحاجات ، والمصادقة ، وأخيراً الاختطاف كل ذلك جرى على أرض الروم ، ولم تكن أرض الإسلام حيث معاوية هناك إلا مكاناً لتلقي التعليمات .

وإذا جذبنا القصة في خط منحنٍ لنقابل بداية القصة في نهايتها فإن هنالك مكانين بارزين جرى عليهما أهم حدثين يرتبطان بالملكين في كلٍ ، فعلى الأول جرى الاعتداء ، وعلى الثاني جرى الاقتصاص ، فأما الأول فهو بساط ملك الروم الذي لُطم فيه حرُّ وجه القرشي فانطلقت صرخته المستغيثة ، والثاني مجلس الخليفة معاوية (ﷺ) ، وهو المكان الذي تم أخذ القصاص من البطريق ، وقد أدى المكان وظيفة إشارية توحي لدى الرومين وعلى رأسهم الملك بقدرة المسلمين على الوصول إلى المعتدي مهما كان ، وكان بمقدور معاوية أن يأخذ الثأر من البطريق على أرض الروم ولكنه أراد إظهار القدرة على الوصول إليهم في أرضهم وأخذ الثأر منهم ، وتلك رسالة أراد معاوية (ﷺ) أن تصل إلى الروم وقد حمَّلها البطريق عندما اقتص منه القرشي فقال له : « ارجع إلى ملكك ، وقل له : تركت ملك العرب يقيم الحدود على بساطك ، ويقتص لرعيته في دار ملكك وسلطانك وعزك » ، وقد وصلت الرسالة إلى أعماق قلوب الرومين ، فقال الملك لبطارقته حينما وردته الرسالة : «هذا أدهى العرب وأعقل الملوك ؛ ولهذا قدمته العرب عليها فساس أمورها ، والله لو أحب أخذي لتمَّت له الحيلة علي » .

لقد كان لتردد التاجر المستمر بين أرض الإسلام وأرض الروم أثر في نمو أحداث القصة وإكساب المكان التعدُّد والتجدُّد ، مما كان له دور في نجاح الحيلة ونيل المطلوب ، فقد كان التاجر يتردد على أرض الشام لغرضين أحدهما ظاهر جلي ، والآخر مستور خفي ، فأما الجلي فلجب البضائع ومايحتاجه الملك وبطارقته والبطريق الضحية على وجه أخص ، وأما الخفي فلأجل إيصال آخر الأخبار واستسقاء الخطوات التالية لها .

ولقد اختزل السارد مسافة الكثير من الأماكن المتباعدة التي تصل مدة سيرها ثلاثة عشر يوماً اختزلها في فعل واحد « انصرف ،دخل » ؛ دلالة على أن التاجر لم يكن يحمل همَّ المسير في سبيل تنفيذ أمر الخليفة وانتصار الحق ،كما يدل على أن معاوية قد هيأ له المركب المريح ، والصحبة الصالحة ،ثم إنها تدل على تراكمية الخبر وتزويد الخليفة بما يستجد من تدابير ومعلومات أولاً بأول ، يقول في وصف رحلة التاجر : « وانصرف من القسطنطينية ودخل على معاوية فأعلمه أنه قد صادق البطريق ، و أنه كلفه حوائج كثيرة » ، وقوله : « ثم انصرف التاجر إلى معاوية سراً وأعلمه بالأمر ..» .

وتتسم بعض الأماكن التي دارت فيها أحداث القصة بـ «الاستدارة » ، إذ تبدأ من مكان ثم تمر على أماكن أخرى لتعود إلى المكان الذي تم الابتداء منه ، فمن الطبعي أن هذا المجاهد القرشي حين لبى منادي الجهاد قد خرج من وطنه الذي لم يفصح السارد عنه ، ثم أُسِر في معركة القسطنطينية ،وتم افتداؤه « فلما وصل إلى أرض الإسلام دعاه معاوية ، واستوصفه عن أمره ،ثم أحسن إليه ،وقال له : لم أنم حتى فككتك ، ولا أنام حتى آخذ لك القصاص ممن لطم حر وجهك ، وما أنا بغافل عنك ، ولاعن غيرك ، ثم صرفه إلى وطنه » ، وهنا إشارة إلى أن هذا القرشي ليس من أهل من دمشق ولامن أهل الشام ربما ؛ لأن معاوية أمره أن يعود إلى وطنه ولم يورد السارد إشارة توحي بمكان سكن ذلك القرشي ، فعندما انصرف إلى وطنه لبث سنين ينتظر أخذ القصاص ، فما تمت الحيلة استدعاه معاوية من وطنه مرة أخرى ، ثم أخذ حقه بلطم وجه البطريق ثلاثاً ووكزه من قفاه مرة ، ثم انصرف مرة ثانية إلى وطنه ، وهنا تتجلى لنا الاستدارة المكانية ،بعدما أخذت الأحداث دورتها .

كما نلحظ في بعض الأماكن في القصة بـ «التراتبية »لتسير وفق حيلة مدبرة ، يتم من خلالها الظفر بالضحية ، فحينما أحضر التاجر ما أراده البطريق من وسائد ومخاد نضدها على صحن المركب ومر بجانب قصر البطريق ، فلما رأى البطريق مركب التاجر طار فرحاً ، وصاح طرباً وسروراً ، فدنا المركب من أسفل القصر ، وحط الشراع ، وبعدها تبدأ التراتبية المكانية : أشرف البطريق على المركب ، فنظر إلى مافيه من حسن ذلك البساط ، ونظم تلك الفرش كأنه رياض يزهر ، فلم يستطع القرار في موضعه ، فنزل قبل خروج التاجر من

مركبه، فطلع إلى المركب ، فلما استقرت قدمه على المركب ، سلم عليه التاجر ، وأجلسه ... ثم تم اختطافه ، فالنظر إلى حسن المركب كان دافعاً إلى التقدم تدريجياً إلى أن استقر على ظهر المركب ، وهنا دلالة على دهاء التاجر في وسائل جذب الضحية نحو شرك الصيد ،ومن الطريف أن الصيادين يستخدمون المراكب لصيد الأسماك ، فكذلك التاجر استخدم المركب وسيلة لصيد البطريق .

ومن هنا تبرز وظيفة المكان ، وعلاقته ببعض الشخصيات ،مما له دور في نجاح الحيلة ، فتردد التاجر ومروره عند وروده القسطنطينية على قرب من موضع البطريق حيث ضيعته التي على فم الخليج على مر السنين، كان من أهم عوامل أنس البطريق به وعدم استغراب مجيئه له في يوم تنفيذ الحيلة ، فقد كان في كل مرة يمر من أسفل ضيعته حيث قصره هناك دون أن يتأكد من وجوده فيها فقد يصادفه فيها ، وقد لايصادفه ، ولكنه هذه المرة استعلم خبر البطريق من أصحاب القوارب والمراكب فأخبر أن البطريق في ضيعته ، فتمت الحيلة ، وهكذا نرى أن الخروج من المكان أصبح عاملاً في فقد الأمان ، فلو بقي في ضيعته ولم يسلب عقله بهرج البساط لما حصل له ماحصل .

هذا ولقد كان لسكن البطريق في قصر داخل ضيعة تشرف على فم خليج القسطنطينية ، حيث القوارب والمراكب تختلف عليها بأنواع الأقوات دلاله على الثراء الفاحش الذي يتمتع به هذا البطريق ، كما يبرز هذا المكان فئة من الناس تعيش على النقيض حيث الفقر والكد ، فأصحاب المراكب الذين يختلفون على هذه العمائر الرابضة على شواطئ الخليج ، والصيادون الذين ينشدون لقمة عيشهم هم ـ بلا شك ـ على جانب كبير من الفقر والمسكنة .

۞الإشارات الزمانية :

الزمان هو الظرف الذي تم فيه وقوع القصة ، ومعرفته ضرورية لفهم الواقع ، ومعايشة الأحداث ، ورصد لسلوك الأشخاص، وتقدير القيم التي يمثلونها .

وإذا شئنا تحديد زمن السارد : فإن السارد هو : علي بن الحسين بن علي ،وقد ولد في أواخر القرن الثالث الهجري ، وتوفي سنة ست وأربعين وثلاث مئة للهجرة ، ومن ذلك نستنتج أنه عاش في غضون القرن الرابع الهجري .

ولقد حدَّد راوي القصة في أولها الإطار الزمني العام للقصة الذي أشرنا إليه سابقاً فصرح به علانية «أن المسلمين غزوا في أيام معاوية أرض الروم » ، ولم يجعل لنا السارد مجالاً لأن نعمل تفكيرنا في استجلاب زمن وقوع القصة ، وتلك السمة غالبة على كثير من القصص غير المنهجة ، والتي تريد أن تصل الفكرة إلى المتلقي مباشرة دون غوص أو تعمق .

أما زمن القصة تحديداً : فقد وقعت في العصر الأموي ،وبالتحديد في خلافة معاوية (ﷺ) ، فبداية القصة حدثت سنة ٤٨هـ ، وهي السنة التي حاصر فيها معاوية(ﷺ) القسطنطينية ، ويُلحظ الفارق الكبير بين زمن السارد وزمن وقوع القصة ، فليس بينهما مايسمى بالمعاصرة ولاشبهها .

ولقد جعل السارد القصة تتقلب بين أزمان عدة في جمل قصيرة ، فمن المراوحة بين الماضي والحاضر والمستقبل نتأمل حواراً جرى بين معاوية والقرشي بعد فكاكه من الأسر ، قال معاوية له : « لم أنم حتى فككتك ، ولا أنام حتى آخذ لك القصاص ممن لطم حر وجهك...» ، وفي هذا الحوار المكثف يختصر سنوات عدة في كلمات معدودة معتمد على إشارتين هما أداتا النفي « لم » التي تفيد نفي وقوع الفعل في الزمن الماضي ، و« لا » التي تنفي أن يقع الفعل في الزمن المستقبل ، وفي ذلك دلالة مضغوطة تنبئ عن حرص معاوية على حفظ رعيته من أن تهان كرامتهم من جهة ، وحتى لايظن الناس أنه غافل عنهم من جهة أخرى .

ولقد أحسن السارد في توظيف أفعال إشارية تفيد زمناً في سياقها الحالي مختلف عن الزمن الذي تؤديه فيما لو تم فصلها عنه ، فالفعل « جَعَلَ » فعل ماضٍ ـ ولا شكَّ ـ

ولكنه في السياق التالي يفيد الاستمرار : « وجعل معاوية من يومه ذلك يتحيَّل بألطف الحيل في أخذ البطريق » ؛ مما يدل على استغراق الزمن في رسم الخطط أملاً في نجاح الحيلة والظفر بالبطريق ،ويؤكد السارد ذلك بقوله : « وتطاول الأمر وهو يتاحفهم بغرائب الحوائج ، ويتاجر لهم ، ويهاديهم ، حتى تمكن من البطارقة ، و من ذلك البطريق أكثر ، حتى مضى لذلك سنين » ،وفي ذلك إشارات زمانية توحي بإيجابية الشخصية في مطاولتها الزمن في المتاحفة والمهاداة حتى لقد مكثت على ذلك « سنين » وهذه الكلمة الملحقة بجمع المذكر السالم تختلف عنها لو جمعت جمع مؤنث سالم ، فإلحاقها بجمع المذكر السالم إنما يدل على كثرة عددها ، ومن هنا يستفاد أن نتائج التخطيط تحتاج إلى رويَّة وتأنٍ وعدم تعجل ؛ لأن العجلة قد تهدم في دقائق مابناه المرء في سنين « ومن تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه » .

لقد مدَّ العنصر الزماني يده لمساعدة التاجر في تنفيذ الخطة ، فانتظار التاجر استفسار البطريق عن سبب إعراضه عنه كان هو مبتدأ الصداقة ومفتتح الثقة : « فلما كان يوم ، قال له ذلك البطريق : عجبي منك يافلان ، وما الذي أسقط منزلتي عندك من بين أصحابي ..» لقد كان التاجر ينتظر ذلك اليوم ، وكان ذا ثقة بأنه آتٍ وهاهو الآن يحل بساحته ليمهد التاجر للبطريق طريق الفخ .

مما يلفت النظر في رحلتي التاجر القدوم إلى أرض الشام بعد خطف البطريق أنه مكث فيها ثلاثة عشر يوماً يقول الراوي : « وحمله القدر في تلك اللجج ، فتعلق اليوم السابع بساحل الشام ، ورأى البر ، فكان في اليوم الثالث عشر بين يدي معاوية » ، ولكنه عندما اقتص القرشي من البطريق أمر معاوية أن يعاد إلى أرض قومه قال الراوي : « وطابت لهم الريح ، فكانوا في اليوم الحادي عشر متعلقين بأرض الروم » ،فرحلة القدوم أطول من رحلة الذهاب بيومين ،وتفسيري لذلك هو حرصهم على أن يصل البطريق إلى أهله في أقرب وقت كي لاتذهب قلوبهم وراء البحث عنه .

وفي القصة دلالة زمانية تنبئ عن ترف بطارقة الروم ، فوصف الراوي للبطريق أنه يمضي «أكثر دهره في ذلك المنتزه »إنما يدل على الترف والبطر الذي يتمتع به أولئك البطارقة على

حساب الضعفاء من أصحاب المراكب والقوارب التي تمخر عباب الخليج حاملة إلى عمائرهم وقصورهم أنواع الأقوات .

۞ لملمة وتحليل عام للأبعاد الدلالية والعناصر الرئيسة في القصة :

أول مايسترعي نظر القارئ هو الرؤية الإسلامية في النص ، فلقد حفلت القصة بجوانب دالة على أخلاق المسلم الفريدة ، على مستوى الملوك والأفراد ، فمن أخلاق الراعي المسلم هو اهتمامه بأمر رعيته ، يقول النبي (ﷺ) : « ما من عبد يسترعيه الله عز وجل رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته إلا حرم الله تعالى عليه الجنة » ، وفي رواية : « فلم يحطها بنصحه لم يرح رائحة الجنة »[1] .

ومن الأخلاق الإسلامية وصية معاوية (ﷺ) للقرشي حين أراد أن يقتص منه ، قال له : « لاتتعد إلى غير ماجرى لك ، واقتص منه على حسب ماصنع بك ، وارع ما أوجب الله ـ تعالى ـ عليك من المماثلة » وهنا يطبق معاوية (ﷺ) قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾[2] مما يدل على عدل الحاكم المسلم ، وتنفيذ أحكام الله دون زيادة أو نقص .

ومما اتصف به معاوية من أخلاق المسلم هو الإحسان إلى الأسير وتحميله بالهدايا وإعادته إلى أهله مكرماً ، ومعاوية (ﷺ) يرمي من وراء ذلك إلى هدفين : الأول : دعوتهم إلى الإسلام من خلال المعاملة الحسنة ، والثاني : تأديبهم لئلا يمس أحد منهم من كرامة مسلم وهذا ماحصل .

وبقدر ماحملت القصة من معانٍ إسلامية ، فقد حملت أثراً فنياً من خلال البناء الشكلي لها ، فقد اعتمد السارد على عنصر تشويق القارئ إلى الاستمرار في متابعة الأحداث في القصة حتى النهاية ؛ لكي يعرف على أي نحو تكون النتيجة .

وقد بنى الراوي القصة على عناصر من شأنها إكساب القصة الترابط الوثيق ؛ لتكوين بداية للقصة في لطم البطريق حر وجه ذلك الأسير القرشي ؛ لتنطلق منها استغاثة تصل إلى

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، من حديث عن معقل بن يسار (ﷺ) .

(٢) سورة (النحل) آية رقم (١٢٦) .

أذن ابن عمه معاوية القرشي ، ومن ذلك تتشكل في القصة العقدة التي يحزن لها الخليفة فيفكر في حيلة يوظف لتنفيذها رجلاً عاقلاً محتالاً ، ويكون الزمن عاملاً من العقبات التي تحتاج إلى مزيد من الصبر والتأني والتخطيط السري ، ثم يأتي الحل السعيد الذي يجعل معاوية يغشى من الفرح والسرور لإفلاحه بالظفر وتمام الحيلة وتحقيق المرغوب ، وكانت النتيجة أن يقتص القرشي من البطريق ويرد كرامته ويحفظ ماء وجهه ، وينجح الراوي في بناء هذه القصة المشوقة ؛ لاحتوائها على العناصر البنائية الرئيسة للقصة .

ولكي يبعث السارد الحيوية في مشاهد قصته السردية فإنه يجمع بين الوصف والحوار أحياناً ، والحوار ليس عنصراً رئيساً في هذه القصة ، ولكن السارد وظفه كي يبعث الحيوية في الأحداث ، ويجعل القارئ أكثر قرباً من المواقف والشخصيات .

وقد تجلَّت في القصة اللغة التي تزاوج بين الحوار والسرد مزاوجة تجعلهما يتصلان في تشكيل بنية فنية قادرة على حمل الأفكار ، وترتيب المعاني .

ولقد تنوع الحوار في القصة ، فمن الحوارات التي وظفها الكاتب في القصة : الحوار الداخلي أو مايسمى (بالمنلوج الداخلي) فور وصول خبر استغاثة القرشي ، وهو حوار قائم بين معاوية ونفسه لحظتئذٍ ، مما ولَّد صراعاً داخلياً انبثق عنه التفكير في الحيلة التي تم تنفيذها .

وحوار آخر قائم على التكثيف يختزل سنوات في كلمات معدودة : « لم أنم حتى فككتك ، ولا أنام حتى آخذ لك القصاص ممن لطم حر وجهك... » .

وقد قامت القصة على حوارات تكشف العلاقات القائمة بين التاجر ومعاوية من جهة ، وبين التاجر والبطريق من جهة أخرى ، مما يفسح المجال للشخصية الرئيسة أن تتحرك في الإطار المحدد لها ؛ ليكشف الحوار عن الأبعاد الدلالية لتصرفات الشخصيات ، وتبرز مدى دهائها أو غبائها .

ومما يزيد في شوق القارئ للقصة احتواؤها على العناصر الدالة على واقعية القصة ، فكل أحداثها قابلة للتطبيق إذا ماتوافرت في الأشخاص الصفات التي تؤهلهم لأن يكون أبطالاً لها ، ورواية التاريخ لها بسند متصل وإثباتها في كتب السير لخير شاهد على واقعيتها ،

ولسنا بحاجة إلى التشكيك في دهاء معاوية ، ولا غباء علوج الروم ، ولسنا بحاجة كذلك إلى إثبات عدل خلفاء المسلمين وظلم الكفار .

ولقد حملت القصة أحداثاً تطويرية كان لها دور في تأزيم الموقف فمن صرخة المستغيث إلى التفكير في إحضار البطريق مكتوفاً إلى أرض الشام ، وتجري الأحداث نحو أحداث جوهرية تقف عند إلحاح الذات على أخذ الثأر من ذلك البطريق ،لتتناسل منها أحداث أخرى تتآزر وتتدافع لتشكل تياراً تحويلياً في نفس معاوية ، وحال البطريق ،وحال ملك الروم وبقية البطارقة ، البعض من تلك الأحداث يتصل بالشخصية ، والبعض الآخر يتصل بمنطق الأحداث تبدأ من الفرح بالأسر ثم الاقتصاص ثم عودة الشخصية إلى اتزانها الطبيعي .

وتتحرك الأحداث استجابة لمحاور كثيرة ، منها محور الرغبة جامحة في نفوس المخططين بغية الوصول إلى أسر البطريق والاقتصاص منه ، ويظهر محور التواصل بين الشخصيات ليقيم علائق متينة بينها وإن ناءت بها الديار .

وأخيراً فإن القصة تحمل خطاباً مبطَّناً ورسالة غير مصرح بها إلا وهي عدل الإسلام وإنصاف المسلمين ، وأنه مهما بلغ الآخر من العداوة فإن ذلك لايحملهم على ظلمه امتثالاً لقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[1] .

(١) سورة (المائدة) آية رقم (٨) .